

سورة الإسراء

(الآيات: 94 - 98)

الدرس

24

أهداف الدرس

- 1- أن أتعرف الأسلوب الحكيم في رد الله سبحانه على مزاعم المشركين.
- 2- أن أستنتج أسباب جزاء المشركين بما ورد في الآيات.
- 3- أن أحذر من الخوض فيما اختص الله تعالى بتدبيره مما لا طاقة لي به.

تمهيد

لما ذكر الله تعالى إنكار المشركين لرسالة النبي ﷺ ومطالبتهم إياه بتحقيق أمور سخيفة حتى يؤمنوا به ويصدقوا رسالته؛ بين في هذه الآيات شبهة أخرى من شبهاتهم الباطلة التي منعتهم من الإيمان، وهي زعمهم بأن الرسول لا يمكن أن يكون من البشر، بل ينبغي أن يكون من الملائكة. وقد رد الله تعالى على أوهامهم هذه وتوعدهم بالعذاب الأليم يوم القيامة جزاء على تعنتهم وعنادهم وتكذيبهم بآيات ربهم.

فما هي أوهام المشركين التي منعتهم من الإيمان؟ وكيف فند الله سبحانه مزاعمهم؟

الآيات

قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۚ﴾ (94) **فُلْ لَّوْكَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُكْتَمِينَ لَنَرَنَّا عَلَىٰ أَعْيُنِنَا مَلَائِكَةً مُّسَوِّمِينَ ۚ** (95) **فُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ**

كَانَ يَعْتَابِلُهُ خَيْرَ ابْنِ صِرَاحٍ 96 وَمَنْ يَدْعِ اللَّهَ فَهُوَ الْمُفْتَدَى وَمَنْ يُضِلْ قَلْبَ تَجْدَ لَقْمٍ
أُولِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرْهُمْ يَوْمَ الْفَيْلَةِ عِلْمًا وَجُودِيعَهُمْ عُمِيًّا وَبُكْمًا وَصَمًّا مَّا أُوْلِيَهُمْ
جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا 97 ذَا لِمَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا
وَقَالُوا إِنَّا كُنَّا عِزًّا مَّا أَوْزَقْنَا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْفًا جَدِيدًا 98

[سورة الإسراء: 94 - 98]

الفهم

الشرح :

أُولِيَاءَ : أنصارا يتولون شؤونهم.
مَّا أُوْلِيَهُمْ جَهَنَّمَ : مستقرهم ومقامهم.
خَبَتْ : سكن لهبها.
سَعِيرًا : لهبا وتوقدا.

استخلاص مضامين الآيات:

1- ما هي المزاعم التي أبطلها الله تعالى في هذه الآيات؟

2- لمن أعد الله تعالى الجزاء الوارد في الآيات؟

التفسير

اشتملت هذه الآيات على ما يأتي:

أولا: تفنيد الله سبحانه شبهات المشركين وأوهامهم:

لما طلب المشركون من النبي ﷺ تحقيق مطالب متهافة لتصديقه والإيمان بما

جاء به، بين سبحانه سبب كفرهم وعنادهم، فقال سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾، ﴿أَنَّ﴾ الأولى في محل نصب بإسقاط حرف الخفض. و﴿أَنَّ﴾ الثانية في محل رفع بـ " منع ". والتعريف في الناس للاستغراق، ومعنى الآية: وما منع جميع الناس من أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا توهمهم الباطل وتعجبهم من إرسال الله رسلا من البشر، وبعثة الرسل من البشر غير بدع ولا غريب.

وعلى تقدير بعث الله تعالى ملكا رسولا إلى الخلق، فإنما يؤمنون بكونه رسولا من عند الله لقيام المعجز الدال على صدقه في ادعاء رسالة الله تعالى، فهذا المعجز سواء ظهر على يد الملك أو على يد البشر وجب الإقرار برسالته، وقد أنكروا المعجزات التي أتى بها النبي ﷺ، وهذا لا يمنع إنكارهم للمعجزات ولو أتت على يد الملك. فثبت أن قولهم بأن الرسول لا بد وأن يكون من الملائكة تحكم فاسد وتعنّت باطل.

وقد شمل عموم الآية كفار قريش؛ لذلك وجه الله تعالى رسوله ﷺ بأن يجيبهم عن هذه الشبهة الواهية بقوله: ﴿فَلَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُخْمِئِينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمُ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾، هذه الآية على معنى التوبيخ والتلف من النبي عليه السلام والبشر، كأنه يقول متعجبا منهم: ما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا هذه العلة النزرة والاستبعاد الذي لا يستند إلى حجة، وبعثة البشر رسلا غير بدع ولا غريب، فبها يقع الإفهام والتمكن من النظر كما لو كان في الأرض ملائكة يسكنونها مطمئنين، أي: وادعين فيها مقيمين لكان الرسول إليهم من الملائكة ليقع الإفهام، وأما البشر فلو بعث إليهم ملك لنفرت طباعهم من رؤيته، ولم تحتمله أبصارهم ولا تجلدت له قلوبهم. وإنما أراد الله جري أحوالهم على معتادها.

ثم نبه الله رسوله ﷺ إلى إنهاء الجدل مع هؤلاء المتعنّتين، فقال سبحانه: ﴿فَلْيَعْلَمِ الَّذِينَ شَهِدُوا أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِنَّكَ كَانَتْ بِعَدْلٍ خَيْرًا أَبْصِيرًا﴾. روى البخاري: أن الملائكة من قريش، الذين قالوا لرسول الله ﷺ المقالات التي تقدم ذكرها من عرض الملك عليه والغنى وغير ذلك، لما سمعوا قوله: ﴿فَلْيَكُنْ لِلَّهِ بَشَرًا رَسُولًا﴾، قالوا: فمن يشهد لك أنك

رسول الله؟ فلتجئ معك طائفة من الملائكة تشهد لك بصدقك في نبوتك، فنزلت هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد: ومعنى أقوالهم إنما هو طلب شهادة دون أن يذكروها، ففي ذلك نزلت الآية، أي: الله يشهد ببني وبينكم الذي له الخبر والبصر لجميعنا صادقنا وكاذبنا.

ثم رد الأمر إلى خلق الله تعالى واختراعه الهدى والضلال في قلوب البشر، أي: ليس بيدي من أمركم أكثر من التبليغ.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ كَانَ يَعْتَدِلُ خَيْرًا بِصِيرًا﴾ "يعلم أحوالهم الباطنة منها والظاهرة فيجازيهم عليها، وفيه تسلية للرسول ﷺ وتهديد للكفار" [أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي: 3/ 267].

ثانيا: جزاء من كذب بآيات الله تعالى وأنكر البعث:

أخبر الله سبحانه عن عظيم سلطانه في خلقه، ونفوذ حكمه فيهم، فقال: ﴿وَمَنْ يَعْذِ اللَّهُ فَأَهْوَ الْمَفْتَدَى وَمَنْ يُضِلَّ أَفْلًا يَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾. في قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْدِلْ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ وعيد.

ولما أجاب الله تعالى عن شبهات القوم في إنكار النبوة وأردفها بالوعيد الإجمالي بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ يَعْتَدِلُ خَيْرًا بِصِيرًا﴾ [الإسراء: 96] ذكر بعده الوعيد الشديد على سبيل التفصيل، فقال سبحانه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُلَمَاءُ وَجُوهَهُمْ غُمِيًّا وَبُكْمًا وَأُولَئِكَ لَهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾. وقد اختلف في معنى هذه الآية، فقيل: هي استعارات، إما لأنهم من الحيرة والهمل والذهول يشبهون أصحاب هذه الصفات. وإما من حيث إنهم لا يرون ما يسرهم ولا يسمعون ولا ينصفونه بحجة. وقيل: تلك هي صفاتهم على الحقيقة، وذلك عند قيامهم من قبورهم، ثم يرد الله إليهم أبصارهم وسمعهم ونطقهم، فعندما يرد ذلك إليهم يرون النار ويسمعون زفيرها ويتكلمون بكل ما حكي عنهم في ذلك؛ لأنه يقال للمنصرف عن أمر خائفا مهموما: انصرف على وجهه. ويقال للبعير المنفقه: كأنما يمشي على وجهه. ومن قال: ذلك في الآية حقيقة قال: أقدرهم الله على النقلة على الوجوه كما أقدرهم في الدنيا على النقلة على الأقدام. وفي هذا المعنى حديث أنس رضي الله عنه: "أن رجلا قال: يا نبي الله، يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: "أليس الذي أمشاه

على الرجلين في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟ "قال قتادة: بلى وعزة ربنا"

[صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب الذين يحشرون على وجوههم...]

وقوله تعالى: ﴿كَلَّمَاحَبَّتْ﴾ خبت النار معناه: سكن اللهيب، والجمر على حاله. والمعنى: كلما فرغت من إحراقهم فيسكن اللهيب القائم عليهم قدر ما يعادون ثم تنور فتزداد توقدا ولهيبا. فالزيادة في حيزهم، وأما جهنم فعلى حالها من الشدة لا يصيبها فتور.

ثم بين سبحانه سبب جزائهم بذلك فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَؤُلَاءِ فَسَيَمْسَكُمْ الْعَذَابُ وَهُمْ لَا يُحْسِنُونَ﴾ [البقرة: 175] الإشارة إلى الوعيد المتقدم بجهنم.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَؤُلَاءِ﴾ يعم الدلائل والحجج التي جاء بها محمد عليه السلام، ويعم آيات القرآن وما تضمن من خبر وأمر ونهي. ثم عظم عليهم أمر إنكار البعث وخصه بالذكر مع كونه في عموم الكفر بآيات القرآن. ووجه تخصيصه التعظيم له والتنبيه على خطورة الكفر في إنكاره. وقوله: ﴿وَرَفَاتٌ﴾ الرفات: بقية الشيء التي قد أصارها البلى إلى حال التراب. وقوله: ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ البعث: تحريك الشيء الساكن. وهذا الاستفهام منهم هو على جهة الإنكار والاستبعاد للحال بزعمهم.

ثالثا: مقاصد الآيات:

تقرر هذه الآيات جملة من المقاصد التربوية، منها ما يأتي:

- رد الله تعالى على منكري رسالات رسله، وبيان مبرراتهم التي يتعللون بها.
- بيان فضل الله تعالى وإنعامه على رسوله ﷺ؛ إذ سلاه عن تكذيب المشركين له وإنكارهم رسالته، ووجهه إلى ما وجه إليه الرسل والأنبياء قبله من تفويض الأمر إلى الله وتحكيمه في أعدائه.
- بيان جزاء المشركين المكذبين بالرسالة الإلهية والمنكرين للبعث والحساب؛ إذ جعل عقوبتهم مناسبة للجرم الذي اقترفوه، وفي ذلك تحقيق للعدل الإلهي.

التقويم

- 1 - ما العلة في إرسال الله تعالى الرسل من البشر دون الملائكة؟
- 2 - ما السبب في بعث الله تعالى المشركين على هيتهم الواردة في الآيات؟
- 3 - على ماذا يدل قوله تعالى: ﴿فَلْيَكْفُرُوا بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَكُمْ﴾؟

الاستثمار

" مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ إِلَى صَرِيحِ الْمَعْرِفَةِ وَسِرِّ الْخُصُوصِيَّةِ فَهُوَ الْمَهْتَدِي إِلَيْهَا، يَهْدِيهِ أَوَّلًا إِلَى صُحْبَةِ أَهْلِهَا، فَإِذَا تَرَبَّى وَتَهَذَّبَ أَشْرَقَتْ عَلَيْهِ أَنْوَارُهَا. وَمَنْ يُضِلُّهُ عَنْهَا فَلَا يَنْظُرُ وَلَا يَهْتَدِي إِلَى صُحْبَةِ أَهْلِهَا، فَيُحْشَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَحْجُوبًا عَنِ اللَّهِ كَمَا عَاشَ مَحْجُوبًا. يَمُوتُ الْمَرْءُ عَلَى مَا عَاشَ عَلَيْهِ، وَيُبْعَثُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ، لَا يُبْصِرُ أَسْرَارَ الذَّاتِ فِي مَظَاهِرِ النَّعِيمِ، وَلَا يَنْطِقُ بِالْمُكَالَمَةِ مَعَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَلَا يَسْمَعُ مُكَالَمَةَ الْحَقِّ مَعَ الْمُقَرَّبِينَ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ انْكَارِهِ لِأَهْلِ التَّزْيِينَةِ فِي زَمَانِهِ، وَقَالَ: لَا يُمْكِنُ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مَنْ يُحْيِي الْأَرْوَاحَ الْمَيِّتَةَ بِالْجَهْلِ بِالْمَعْرِفَةِ الْكَامِلَةِ، وَفِيهِ انْكَارٌ لِعُمُومِ الْقُدْرَةِ الْأَزَلِيَّةِ، وَتَحْجِيرٌ عَلَى الْحَقِّ " .

[البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لابن عجيبة: 3 / 236]

أتأمل النص وأبين من خلاله ما يؤثر في هداية الإنسان وضلاله.

أتأمل الآيتين: 99 - 100 من سورة الإسراء وأجيب عن الآتي:

1 - أبحث عن مدلولات العبارات الآتية: أَجَلًا - خَزَائِنٍ - لَمَّا مَسَكْتُم - فَتُورًا .

2 - بم وصف الله تعالى الإنسان في الآيتين؟ وما الغرض من ذلك؟

3 - أبحث عن الأساليب البلاغية الواردة في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَادِرُ عِلْمٍ أَنِّي خَلَقُ مِثْلَهُمْ﴾، وأوظف ذلك في فهم معنى الآية.